Mudun as-saharâ' al-jazâ'iriyya fi at-tahawwulât : qusûr al-ams "al-yûm mudun"

Abdelkader Khelifa

▶ **To cite this version:**

Abdelkader Khelifa. Mudun as-saharâ' al-jazâ'iriyya fi at-tahawwulât : qusûr al-ams "al-yûm mudun". Penser la ville – approches comparatives, Oct 2008, Khenchela, Algeria. pp.352. halshs-00387135

HAL Id: halshs-00387135
https://shs.hal.science/halshs-00387135

Submitted on 28 Jun 2009

HAL is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire **HAL**, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.

مدن الصحراء الجزائرية في التحولات.

قصور الأمس" اليوم مدن"

Villes du Sud d'Algérie en Mutations.

Ksars d'hier, villes d'aujourd'hui.

أ: خليفـــة عبد القـــــــــادر*[1]

Abdlekader Khekifa

مقدمة

لم تعد الواحات في الصحراء الجزائرية اليوم كما كانت عليه منذ ماض قريب !... إن حقيقتها العمرانية والاجتماعية اليوم تؤدي بنا إلى الوقوف على ساحة من التحولات العميقة و المتسارعة.إذ أن واقعها الآن يثبت أن 80 بالمائة من سكان الصحراء أصبحوا اليوم حضريين، هذه الحقيقة لم تتكرس إلا خلال العشريات الأخيرة، من خلال ما عرفته مدن الجنوب من حركية عمرانية لم تشهدها هذه المدن طيلة آلاف من السنين من وجودها.

هذا الواقع الجديد و الذي يعود أساسا إلى ديناميكية عمرانية متسارعة (تفوقت حتى على مدن الشمال)[2] محركها الأول هو عوامل التحديث والمشاريع الوطنية الإستراتيجية بعد الاستقلال، وأيضا التطور الاجتماعي الاقتصادي لمجتمعات هذه المناطق.

للعمران في الصحراء جذورا تاريخية عميقة، مظاهر الحضرية والتمدن كانت مألوفة في القصور والمدن التاريخية منذ مئات السنين وازدهرت كمحطات للقوافل التجارية التي كان مسرحها الفسيح بين ضفتي (بحر الصحراء) منذ 10 قرون، بذلك امتلكت ذاكرة حضرية غنية وجذور أصيلة من خلال ما يعرف بالقصور (حضرية أو قروية).

من خلال ملاحظة ومقارنة هذه التحولات من منطلق مقاربة سوسيو أنثروبولوجية هل يمكننا التعرف على حاضر المدن الصحراوية اليوم؟ وهل يمكن معلمة تمفصلات هذه التحولات والتي من شأنها أن توضح لنا هذا الحاضر بتفاصيله وتعقيداته؟ لمعرفة في أي اتجاه تسير هذه التحولات؟

أولا: النسق التقليدي للعمران المحلي (القصور منطق التناغم والتدرج).

يتميز العمران في هذه المدن عموما و منذ القديم بتركز كبير في الكتل الرئيسية التي تتفرع إلى مراكز صغيرة، تتحكم في وجودها ووظائفها عوامل الطبيعة الخاصة بهذه المنطقة الجنوب الشرقي الجزائري (وادي ريغ خصوصا) المطبوعة بتركز نقاط الماء، العنصر الأساسي في أي استقرار في هذه المناطق مما حتم خصوصية النشاطات التي طالما وقفت وراء هذه التركزات الحضرية في الماضي والمنطق المجالي الذي نظم هذه القصور والمدن، وعلاقاتها مع عالم البدو الذي لعب ويلعب دورا هاما في نشاطات هذه المجالات وفي عمرانيتها.

- ✓ **دور قوافل التجارة**

---

[1] Anthropologue

Université de Ouargla

* أستاذ مساعد جامعة قاصدي مرباح ورقلة

[2] **Marc COTE**: « *Dynamique urbaine au Sahara* » ; in **Insaniyat** (Revue algérienne d'anthropologie et sciences sociales) n°05. Mai Août 1998. p89

مع تبلور دور قوافل التجارة والتي كان للبدو الدور الأساسي فيها و التي جابت الصحراء ونقلت خيراتها، تتطور المـــــدن في الصحـــراء و تجذب اهتمام الرحالة الجغرافيين القدامى، ابن سعيد، البكري، الإدريسي، وبالتالي تتموقع هذه المدن والقصور على محاور الاتصال، شمال / جنوب و شرق / غرب، تبرز أهميتها التاريخية منذ حوالي القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر، كمحطات لربط قوافل التجارة[3] مما يفسر المسافات بينها و التي تدل على مرحل مسيرة قوافل. كما كان للصراعات المذهبية والإثنية التي وقعت في تاريخ الصحراء دور كبير في السيطرة على هذه المحاور التجارية و توجيهها.

- ✓ **سكان مستقرين حضريين**

لكن وجود المدن والقصور لا يعود فقط إلى هذه الوظائف، هي تظم أيضا سكانا مستقرين حضريين تربطهم علاقات وطيدة مع القبائل البدوية، و الرحل المحيطين بهم، يعيشـــون باستغلال زراعة النخيـــــل أساسا، مميزاتهم المجالية والاقتصادية والاجتماعية تجعل مهم تجمعات أصيلة ذات تقاليد حضرية عريقة مثل مجتمع الحشاشنة في واحات وادي ريغ.

- ✓ **قصور وادي ريغ**

القصور على طول وادي ريغ والذي سنتخذه نموذجا أصيلا لهذه المقاربة، والذي يشمل حوضه معظم المنخفض الجنوبي الشرقي بين الزيبان وورقلة، شكلت المجال السكني لفلاحي النخيل، في هذه الواحات قرى بسيطة وكثيفة مبنية من الطوب النيئ معدة أساسا لسكن الفلاحين وهي نموذج القصور بالتعريف، أما المدن التاريخية والتي تمثلها مدينة تقرت(مستاوة) دونا عن غيرها من القصور المجاورة لها، بحكم موقعها عرفت تطور علاقات تجارية وصلت حتى تونس والمغرب وبلاد السودان. شكلت مركز انطلاق قوافل ووصول أخرى في نظام موسمي وسنوي بفضله وبفضل تطور وظائف أخرى سياسية ودينية تصبح تقرت القديمة عاصمة جهوية تلعب دورا إقليميا هاما مشرفة على شبكة قصور وقرى وادي ريغ، بذلك لفتت أنظار الممالك والقوى السياسية المجاورة، الحفصيين، والحكام العثمانيين في بايليك الشرق وغيرهم الذين أخذوا في بسط نفوذهم على مناطق الحضنة والزاب ووادي ريغ.

من خلال مختلف الأوصاف التاريخية التي تحدثت عن المدينة تقرت التاريخية وكذلك المدن الصحراوية الأخرى والتي هيمنت على شبكات قصورها والتي تتميز بتشابه كبير في ميزات المجال المبني وهيكلته، في معظمها تنطبق عليها أوصاف المدينة في العالم العربي الإسلامي، تتكون أساسا من أنسجة عمرانية مهيكلة انطلاقا من مجموعة من التجهيزات المركزية، المكان المركزي حول المسجد أو الجامع الكبير، السوق الرئيسي والمتاجر أوحوانيت الصناعة اليدوية التقليدية، لشوارع الرئيسية المنطلقة من هذه الفضاءات العامة هي شريان الحياة الاجتماعية العامة بإتحادها مع الساحة العامة تشكل المجال العام PUBLIC مجال المرور والنشاط والالتقاء.

أما القصـــر والذي يقع في الترتيب من حيث الأهمية العمرانية والوظائف في درجة أقل من المدينة التاريخية، القصور في وادي ريغ منذ نشأتها وتحولاتها بحثا عن مصدر الماء، هي مكان سكني بالدرجة الأولى لفلاحي النخيل لم يبلغ تعقيد المدينة تتركز وظائفه على العلاقة مع الواحة، تسكنه فئات من الفلاحين مزارعي النخيل من السود الحشاشنة. هذه القصور الممتدة في شكل سبحة تتبع اتجاه انحدار وادي ريغ من بدايته(بقوق – بلدة عمر) إلى نهايته عند الشطوط في مروان وملغيغ قرب (المغير)، منها القصور المجاورة للمدينة تقرت هي النزلة، تبسبست، الزاوية العابدية، والتي ستشكل فيما بعد مجتمعة مدينة تقرت ذات الأنوية العمرانية المتعددة.

- ✓ **منزل ذو مواصفات هندسية خاصة**

---

[3] **Said BELGUIDOUM** « *Urbanisation et urbanité au Sahara* » in Méditerranée, Revue géographique des pays Méditerranée n° 3-4 -2002 ; p 36.

في معظم هذه القصور والمدن نجد المنزل ذو مواصفات هندسية خاصة، مغلق تماما عن الخارج، مفتوح عن السماء، يمثل الإطار المثالي للحياة التقليدية في المنطقة المتميز بخصوصية الحياة الأسرية، يتأقلم مع النظام الأبوي للأسرة ومكانة الحرمة بالنسبة للرجل والمجتمع معا، لارتباطه بالعقلية المحلية من جهة والثقافة العربية الإسلامية من جهة أخرى، و باعتبار أن كل شعب قد أنتج هندسته المعمارية يخرج من خلالها خطوطه الخاصة به كما يفعل مع لغته أو لباسه وفلكلوره[4].

في مدينة تقرت بالخصوص يمكن التمييز بين نوعين من السكن التقليدي، السكن الذي وجد في النواة الأصلية مستاوة المدينة التاريخية، والذي بحكم وضع المدية كمركز سياسي لحكم أسرة مشايخ بني جلاب ومركز تجاري أرتبط بحركة قوافل التجارة والعلاقات مع المحيط الجهوي البعيد و أيضا البدو، أما بقية القصور التي كونت المدينة الحديثة كالنزلة تبسبست، الزاوية العابدية فقد ارتبطت أصلا بثقافة زراعة النخيل وضمت السكان المحليين " الحشاشنة "، مما يجعلنا نميز بين نوعين من السكن التقليدي حتى وإن كان هذا التمييز غير عميق إذ تبقى السمات الأساسية والمحددة تبقى موحدة بالنسبة للنوعين وبين النوعين هناك قواسم مشتركة ومركبة بين الثقافة المحلية الفلاحية وتأثيرات المحيط الجهوي. و السمة البارزة التي طبعت منطقة السكن في هذه المنازل قبل انهيار الحدود الثقافية بين المجتمعات في حدود القرن 19[5] نلاحظ أشكالا و تفاصيل هندسية محلية كانت ثمرة التزاوج المتناغم بين مخيال هذا المجتمع المحلي و الشروط البيئية المحلية أيضا.

من خلال مختلف الأوصاف التاريخية نلاحظ أن المدن والقصور المرتبطة معها تتميز بأنسجة بنائية خاصة تتميز بوجود العناصر التالية، المنازل، المساجد، الساحات، الشوارع القلعة أو البرج، الأسواق، الدكاكين، و ورشات الصناعة التقليدية. القرى و المدن في مجملها تموقعت على مناطق مرتفعة – Pitons – حسب ما تسمح به طبوغرافية المنطقة، تأخذ الشكل الدائري في معظمها، عند قراءة هيكلتها نحس أن أولوية مخططها كانت مسألة الدفاع، بسبب الصراعات المتكررة التي شدتها المنطقة في فتراتها التاريخية المتعاقبة[6]الإثنية و أيضا المتعلقة بعملية الإنتاج الزراعي، في تلك الأثناء كان السكان يعرفون مزايا البناء في الأماكن المرتفعة وحتى وإن حرمتهم طبوغرافية المنطقة المسطحة المنبسطة من هذه المواقع المنيعة، قاموا بتعويض ذلك بردوم من أجذع النخيل نجده مازال موجود أثره في منطقة تماسين (10 كلم جنوب تقرت) وتمرنة (شمال تقرت).

- ✓ **موارد القصور وأدوارها**

المورد الأساسي لهذه القصور بالدرجة الأولى هو إنتاج التمور، إضافة إلى منتجات موسمية محلية، هذا الإنتاج الذي سمح للمنطقة بالتبادل التجاري مع مناطق أخرى في الشمال والجنوب، وسمح أيضا بتغطية الحاجيات الأساسية للسكان، كما سمح لبعض المجموعات والعائلات بالثراء، الوظيفة الأخرى والتي لا تقل أهمية في عالم الصحراء هي التجارة والتبادل الجهوي، أحيانا بعيد المدى يصل إلى أعماق الصحراء لربطها بالشمال وبالشرق وبالغرب.

إن نظم الري والاستفادة من المياه القريبة من السطح في هذه المنطقة المنخفضة سمح بإيجاد الواحات، امتداد هذه الواحات وكبرها يتوقف على كمية الماء المتوفرة من المنابع والعيون وعلى مساحة الأرض الصالحة للزراعة أي القليلة "النز" والملوحة، امتداد وسائل الري وتنظيمه وأيضا يتطلب الأمر إيجاد شبكة من القنوات لتصريف المياه الزائدة والتي قد

---

[4] **Fathi HASSAN**, « Construire avec le peuple histoire d'un village d'Egypte, Gourna »4e, sindbad, Paris 1985.p 60
[5] **Fathy HASSAN** ibem. p 64
[6] **Léan Charles FERAUD** « *les Ben – Djellab, sultans de Touggourt* ; Notes historiques sur la province de Constantine ; in Revue africaine N° 23. 1879. p66

تتسبب في قتل النخيل مثل الجفاف تماما، كل هذه التجهيزات والأعمال تطلبت مجهودات مضنية من الفلاحين، قد نتصور كمية الوقت والجهد الذي تطلبته هذه الأعمال في غياب الوسائل المتوفرة اليوم. إن عملية توزيع حصص مياه السقي عملية هامه وحساسة بين الفلاحين المشتركين في عين واحدة، تتم العملية على أساس حساب الزمن " النوبة " وما تزال هذه الطريقة تستعمل حتى اليوم مع الآبار المجهزة بالكهرباء. يعمل الفلاح البسيط في نخيله الخاصة أما إذا كانت ملكيته صغيرة وهو الغالب، فيقوم بالعمل عند كبار الملاك بطريقة " الخماسة" أي بأخذ خمس المحصول من التمور وهي الأجرة التي تعارف عليها السكان حتى تم إنهائها مع الثورة الزراعية[7]، وكانت المرأة أيضا تشارك في أعمال الفلاحة مع الرجال.

عبر طول وادي ريغ تمتد مراكز تجارية تتفاوت في الأهمية، تعود في قدمها إلى العهد الروماني، فمدينة تقـرت في هذا العهد كانت تربط الصحراء وبلاد السودان بالشرق الجزائري[8] وإذا كان متوسط مرحلة واحدة من الرحلة يحدد عادة ب50 كلم، فذلك ما يفسر المسافات المتقاربة الآن بين أهم مدن وادي ريغ (المغير، جامعة، تقرت) يجعل منها محطات للقوافل الرحلة من قابس إلى ورقلة كانت تستغرق 15 يوما، 6 أيام من تقـرت إلى ورقلـــة وحوالي أربعـــة أشهر لعبـــور الصحراء[9] هذه الرحلات كانت تحتاج إلى الكثير من قوة الاحتمال والصبر للوصول إلى الهدف المنشود وسط هذه الصحراء القاحلة والجافة[10] تضم هذه القوافل مجموعات من التجار تربطهم مصلحة الطريق تستعمل أدلاء وحراسا من البدو من قبائل الجنوب. تتحرك هذه القوافل بحسب المواسم، تصل المنطقة في موسم التمر، تجلب الحبوب والقماش والصوف لتقايضها بالتمر، ثم تنطلق نحو الصحراء لتقضي الشتاء والربيع ومع انتهاء الربيع تمر مرة أخرى على المدن الصحراوية لتحمل التمور لتتجه نحو التل لتوافي موسم حصاد القمح، تصل إلى الشرق القسنطيني، بعد دفع ضريبة " الحيسة" Hissa، تقرت وتماسين من أهم المراكز التجارية بالجنوب الشرقي، استعملت هذه المدن العملة مبكرا، سواءا العملة التركية أو الريال التونسي " الطرباقة" أو الدورو الأسباني[11] من أشهر القبائل التي تقوم بهذه العملية المتواصلة، أولاد مولات، الشعامبة عرب غرداية، أهالي الطيبات، سعيد أولاد عمر. كانت أرباح هذه القوافل التجارية هامة جدا. 500 من العبيد يتم جلبهم كل سنة إلى تقرت يشترون بـــ 150 إلى 200 فرنكا ليعاد بيعهم في التل بـــ 500 فرنك، كما أن حمولة جمل واحد من التمر من تقرت تستبدل بأربع حمولات من القمح على حدود التل[12]. مع هذه الحركة النشيطة للقوافل كان لابد من وجود أسواق تستوعب وتعيد توزيع هذه البضائع، سوق تقرت كان دوما من أهم أسواق الجنوب الشرقي، شكل محطة لقوافل الزاب، والشعامبة، الذين لعبوا دور الواسطة مع قبائل الطوارق، كما أرتبط السوق بإقليم الجريد التونسي والمغرب خاصة مع قوافل الحج التي كانت تصل المنطقة وتتخذها محطة لها[13].

إن تاريخ المدن الصحراوية على العموم يوضح لنا من خلال الفسيفساء البشرية والاجتماعية التي تتماثل مع تنوع ديني ومذهبي، إباضية، سنية مالكية، زوايا. تأثرت المنطقة ولمدة طويلة بالإباضية الذين قدموا بمذهبهم بعد سقوط عاصمتهم تيهرت على يد الفاطميين أسسوا مدينة جالوا بالقرب من بلدة عمر (20 كلم شمال تقرت) ويذكر ابن خلدون أن أكثر أهل وادي ريغ من الخوارج يسميهم بالعزابة إشارة إلى أن العمل بنظام العزابة المشهور حاليا في وادي ميزاب إنما بدأ في منطقة وادي ريغ [(1)] . المذهب المالكي ينتشر في المنطقة على يد الدعاة من الذين قدموا إلى المنطقة في حدود

---

[7] هذه الأجرة عادت للتطبيق في بعض الواحات اليوم، البعض منهم يعمل في واحة المالك لقاء الثلث من المحصول.

[8] **Marcel EMRIT,** *les laisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du nord au 18 et 19 S*, I.D.S.p 139

[9] **Alain ROMEY** ; « *Histoire Populaire et Tradition orale d'un Oasis arabe-berbére N'goussa »* 1973-74 Magrhelle, p32.

[10] **Jean BISSON** *; « les nomades des départements Sahariens »* 1958 Paris ; p200-204.

[11] **ناصر الدين سعيدوني.**« *دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني »*، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 ص 243

[12] **Marcel EMERIT :** ibem. p 142.

[13] **Pierre FONTAINE :** « *TOUGGOURT capitale des Oasis* »DERVY, Paris, 1952. p39.

القرن السادس عشر أمثال سيدي أمحمد بن يحي الإدريسي وغيره من المغاربة الذين نشروا المذهب المالكي بعد رحيل الإباضيين نحو سدراتة ووادي ميزاب.كثيرة هي العادات الشيعية بالمنطقة حسب الشيوخ الذين سألناهم حول هذه المسائل يمارسها السكان بعفوية والتي تعود حسب روايتهم إلى زمن الصراعات المذهبية التي شهدتها المنطقة.

مع تطور الحركة الصوفية تؤسس لنفسها زوايا أصبح لها امتدا وتاثير واسع، الزاوية التيجانية في تماسين خاصة مع القرن التاسع عشر تتوسع لتصبح ثاني مقر بعد مقرها الرئيسي في عين ماضي، تستقطب العديد من المريدين من سكان المنطقة تمارس تأثيرا روحيا كبير ما زال حتى اليوم. زيادة على الزاوية القادرية، زاوية سيدي الهاشمي الزاوية سيدي العابد، إن العادات العربية الإسلامية قد أثرت على سكان المنطقة فى كل جوانب حياتهم وهندسة منازلهم التي تستجيب لمتطلبات الخصوصية وقواعد السلوك الإسلامي، من خلال السلطة الروحية للطلبة وتوزيع المساجد والجوامع في كل أحياء المدينة وفي كل القصور هذه المساجد الصغيرة كانت توزع حسب المجموعات الاجتماعية أو المذهبية أو الطرقية بها المدارس القرآنية للصغار ذكورا وإناثا وتقام فيها الصلوات الخمس تحت إشراف إمام يختار من صف الطلبة الأرجح عقلا والأكثر معرفة بالشرع، أما الصلاة الرئيسية في الجمعة والأعياد فتقام في المسجد الكبير يحضرها الناس من كل الأحياء. هذا النظام يأخذ أيضا طابعا متدرجا يبدأ من الصغار الذين يتعلمون القرآن ثم الطالب حتى الإمام ليصل إلى إمام الجمعة هو الشخصية المرموقة دينيا، مجموعة الطلبة هي التي تقوم بالحل والربط في المسائل اليومية للسكان المتعلقة بالحياة الدينية والاجتماعية وحتى الاقتصادية بخصوص البيوع والمواريث والمنازعات الخاصة بتقسيم نوبات السقي في واحات النخيل، لتصل إلى الجامع الكبير مكان التوجيه العام الذي يربط هذا المجتمع المحلى بالعالم الإسلامي عن طريق إشعاع الزوايا.

ثانيا:التحولات بين الانقطاع والتواصل.

مع إقامة الدولة الوطنية كثمرة للاستقلال الوطني، يأخذ الاندماج في المجتمع الوطنـــي العـــام عدة أشكال، إذ يشكل الجنوب وبخاصة الجنوب الشرقي أهمية إستراتيجية للحكومة المركزيـــــة بفضل آبار البترول والتي ترجع بدايـــة استغلالها إلى سنة 1956 تم تأميمهـــا سنـــة 1971 زاد في أهمية الثروة الاقتصادية الوطنية والمحلية التي تنتج عن استغلاله.في ظرف 20 سنة بعد استرجاع السيادة الوطنية ، الصحراء تتحول كلها وبعمق، تحت تأثيـــر سياســـة تطوعية، وتعميم استغلال والتنقيب عن النفط، وتأسيس إدارة جديدة. وذلك بالاستثمار والتجهيز على المستـــــوى الوطني ويصبح التعمير واقعا غالبـــا، وتتضاعـــف المصادر الاقتصادية مما يسمح بنمو شرائح اجتماعية جديدة جهوية ووطنية أيضا.

- ✓ **أدوات التسيير العمراني**

إن التنظيم والتقطيع الإداري، والتجهيز الاقتصادي هي مفاتيح لسياسة الاندماج في المجتمع الوطني العام في الصحراء، تدمج منطقة وادي ريغ ضمن ولاية ورقلـــة وجزء منها في ولاية الوادي. هذه اللحمة الجديدة للتنظيم الإقليمي حتى وإن لم تضع في الحسبان الوحدة البيئية والاجتماعية والتاريخية بتقسيمها بين عدة ولايات، ورقلـــة، بسكرة ثم الوادي هذا لقسيم والتنظيم يسمح بإنشاء وخلـــق أنشطة جديدة للتجهيـــز والخدمات، مديريات إداريـــة مستشفيات مراكز صحية، مدارس ثانويات، شبكة بريد، بنوك...الخ. كانت لها آثار كبيرة على التشغيل، والسكن وتحسن مستوى المعيشة. إن استغلال النفط جاء بإقامة قاعدة كبيرة في حاسي مسعود تستقطب أبناء المنطقة للعمل الدائم والمؤقت وتعطي ديناميكية جديـــدة للمجتمـــــع، وللأشغال الكبرى القاعدية والطرقات والمطارات تسهل الحركية داخل هذه الشبكة جهويا وربطها أيضا بالوطن وبالعالم. وتسمح للمنطقة والمدينة تقـــرت الخروج نهائيا من محليتها بلا رجعة وبهذه النشاطات تتغير الكثير من معطيات المجتمع الشكلية والنوعية.

هذا النموذج من التنمية ومنطقه الجديد المتميز بالحضور القوي للدولة في كل مجالات النشاط في مرحلة التنمية الأولى، ونظام الأجور المتنامي مما دفع الكثير من الشرائح الاجتماعية من مناطق التل للتوجه للمنطقة من أجل العمل.

- ✓ **ديناميكية داخلية**

تلتقي هذه التحولات الخارجية مع ديناميكية داخلية للمجتمع في المنطقة المتعدد الأصول والانتماءات وأشكال التنظيمات الاجتماعية ارتكزت هذه الديناميكية على منابع ومصادر ثقافية للمجتمع الصحراوي بالرغم من نزعة التوحيد المرتبط أساسا بالمنطق الاقتصادي وتوحيد طرق وأنماط الحياة وأشكال السكن، يبقى سكان المنطقة مطبوعين بخصوصياتهم التاريخية وهياكلهم الاجتماعية.بتأقلم السكان مع مقتضيات الاقتصاد العام الجديد و أفول الأشكال التقليدية للاقتصاد الصحراوي برزت أشكال من التأقلم الذكي بين منطقها الهوياتي ومنطق " الدولة " المتميز " بالعصرانية " أو التحديث.

إن الاندماج في سوق العمل في القطاع الصناعي وفي القطاع الخدماتي بالخصوص والتأقلم مع الشبكات الجديدة في الشكل الرسمي (formel)أو غير الرسمي (informel) والذي سيطرت عليه شبكات من التجارة والتهريب، امتهنته المجموعات البدوية القريبة من المدن أو الحديثة التمدن حول المدن الصحراوية عوض لها سالف عهدها بالقوافل والطرق التجارية، وتطور قطاع الصناعات الصغيرة(PMI) وبقاء النشاط الزراعي ولو محدودا، هذه الأنشطة والوظائف الجديدة تشهد على حركية داخلية حقيقية وهامة.

في ظرف أربعين سنة الماضية تضاعف المجتمع في هذه المدن تضاعف سكان مدينة تقرت كان جد مهم من سنة 1960 إلى 1998 يتضاعف عدد السكان ست مرات وفي الولاية ورقلة يتضاعف 15 مرة في نفس المدة إحصاء (1998 الديوان الوطني للإحصاء) الدافع الأول والهام لهذه الزيادات يرجع إلى الزيادة المفرطة في المواليد من جهة، كباقي جهات الوطن وأيضا يعتمد على قوة جذب سكاني هام من مختلف مناطق الوطن بحثا عن التشغيل، كما لعب تمدين البدو دورا كبيرا في تضخيم هذه الزيادات الطبيعية وغير الطبيعية، جداول النمو السكاني لولاية ورقلة أحياء وبلديات مدينة تقرت توضح هذه الزيادات.

ساهم الرحل دوما في تجديد سكان الواحات والمدن الصحراوية، لكن هذه المرة وابتداء من الستينيات وكثمرة للاستقلال وتحديث الحياة كان هذا التمدن شامل ونهائي بنسبة كبيرة، على هامش المدن ثم داخلها والاندماج في النشاطات الجديدة والمصادر الجديدة للدخل[14]، حتى وإن أبقى البدو على علاقات اجتماعية واقتصادية تربطهم بعالم الريف والبداوة، إذ بنهاية النشاطات التقليدية، الرعي والنجع يجبر السكان على تغيير طرق حياتهم والانضمام تدريجيا إلى حياة المدينة، ولاندماج في النشاطات الجديدة والمصادر الجديدة للدخل والاستفادة من الخدمات والتوزيع منذ سنوات الستينيات حتى نهاية السبعينيات، نسبة الرحل في مدن ولاية ورقلـــة مثلا تنخفض من 40% إلى 10% إذ يتمدن ثلاثة أرباع الرحل في الولاية[15] هذا التضاعف والتحول تم أيضا على مستوى المجال، وصل حده الأعلى إلى التهام تجمعات حضرية كانت في الزمن القريب متجاورة (قصور النزلة،الزاوية العابدية، تبسبست) لتصبح مدينة واحدة متلاصقة تؤلف نسيجا عمرانيا واحدا مدينة متعددة المجموعات والشرائح والهويات.

---

[14] **Jean BISSON** : *« le chaanbi et le Hammam : Zelfana, boite noire de l'am [illegible] agement au Sahara Algérien »*, in le nomade L'oasis et la ville, Fascicule de Recherche, n °20 URBAMA, 1989.p 66.

[15] الدليل الإحصائي لولاية ورقلة 2001.

هذه الكيانات تتناسب مع انتماءات جهوية متعددة، نموذج متراكب له تمظهرات اجتماعية متعددة ومتنوعة وأشكال من التنظيم الاجتماعي المتمايز، لتأخذ صورة الجنوب الشرقي المطبوع بالمحروقات، بمركباته الأصيلة والجهوية والوطنية، بين البدو المتدنين حديثا، والسكان ذوى التقاليد الحضرية العريقة، المتأثر بالشبكات التجارية النشطة حوله، وسوف ووادي ميزاب. ظاهرة العمران والتعمير في طور الإنجاز دائما غير متساوية ولا متماثلة.

- ✓ **المرفولوجية المجالية للمدينة**

في أغلب الأحيان حاليا تأخذ المرفولوجية المجالية للمدينة الصحراوية شكل انضمام لعدة أنسجة تتماثل مع أربعة فترات تاريخية للعمران:

1. القصر أو المدينة التقليدية التاريخية و التي تؤلف نواة المدينة.
2. – المدينة أو الإضافات الكولونيالية حول المدينة القديمة أو على جانبها.
3. –الأحياء العشوائية التي ميزت الفترة الأولى للاستقلال أو التي ضمت تثبيت البدو الرحل.
4. أحياء التعمير المبرمج في إطار البرامج السكنية المختلفة من سكن فردي ذاتي وسكن جماعي.

إن مسار تدهور الأنسجة التقليدية في تسارعه يشير في نفس الوقت إلى نوع من المقاومة وإن كانت ضعيفة ودون وسائل مادية، حتمية توسع الأنسجة الجديدة وخصوصية الواقع المحلي الجديد وبشكل عام على مستوى الصحراء، أصبح السكن التقليدي يمثل نسبة هامشية أكثر فأكثر مما يعكس تدهور القصور بقي هذا النوع يعادل (17.7%) في تقرت الكبرى من حظيرة السكـــــن.

توضح وضعية المدينة التاريخية مستاوة مستقبل الأنسجة التقليدية، فقد حطم جزء منه في العهد الاستعماري بما فيه قصر السلطان الذي وضعت في مكانه ثكنة عسكرية ومنذ ذلك الحين يشهد تدهورا مستمرا نتيجة خروج المدينة عن أسوارها وبداية التعمير بمنطق جديد. نتيجة تدهور سكناته وغياب الترميم قامت السلطة المحلية بعدة مشاريع إسكان لعائلاته لكن بمجرد خروج السكان يعوض هؤلاء بسكان جدد في الثمانينات وذلك تحت ضغط أزمة السكن موجات من الهجرة إلى المدينة من الضواحي والبدو الرحل وأيضا النمو الديمغرافي الكبير، وانتهت بتدهوره النهائي وتحطيم عدة أجزاء منه بقرار من السلطات المحلية بعد أن وحد معظم السكان للاستفادة من سكنات إجتماعية أو في إطار السكن الريفي أو السكن التطوري.

القصور المجاورة والتي أصبحت الآن نتيجة توسع المدينة ضمن النسيج العمراني للدائرة الكبرى وبالرغم من أن كل منها مقر بلدية، تشهد تدهورا كبيرا وتحولا عميقا نلاحظ أن معظم السكان استفادوا من سكنات جديدة في أحياء مختلفة، والعائلات التي استفادت من السكن لم تتحول في مجملها بل احتفظت بسكناتها القديمة والتي بقي فيها جزء من الأسرة أو قامت بكرائها في طور التمدن ا أو القادمين الجدد من التل أو من الأوراس أو من أحواز المدينة، وأصبحت مثل حالة النزلة القديمة إلى مقاطعة حقيقية للفقر وحتى لممارسات مشبوهة، بسبب اختفائها عن الأنظار وصعوبة سالكها وأثمان كرائها الرخيصة. كثافة هذه القصور كانت مسئولة عن جزء كبير في هذه التدهور وإضعاف مساكنها.

- ✓ **التوسع العمراني الجديد**

وضعت تخصيصات لأراضي جديدة، زاحمت الصحراء، والشطوط، وتوسعت في كل اتجاه مع دفاتر شروط خاصة وطرق بيع مقننة سجلت ضمن برامج جديدة مختلفة مثل ما وقع في مدن الشمال قبل 15 أو 20 سنة، التطور العمراني أدخل إستراتيجيات سكنية جديدة شجعته السياسة العمومية ساهم في بناء هويات اجتماعية جديدة[16] ، المدينة اليوم تتوفر على أحيائها السكنية الراقية الفيلات المنجزة بهندسة مختلفة كان الهاجس الكبر في إنجازها هو إبراز الثراء مثل شارع " الكويت" الذي أصبح يرمز إلى هذا النوع من السكن الراقي أين تجمع فيه العديد من أثرياء السوافة الذي يرمز إلى نجاحاتهم التجارية والبرجوازية الصغيرة المتنامية، بهذه الأجنحة الجديدة تتطور المضاربة العقارية تؤدي إلى ظهور أحياء متمايزة اجتماعيا من جهة المنازل والفيلات الكبيرة التي تعكس التنمية الاجتماعية الجديدة وأسلوب الحياة الذي تبناه.

النموذج الأكثر انتشارا هو السكن الفردي الذي يمثل(54%) في الولاية (ورقلة) من حظيرة السكن في أجنحة عمرانية جديدة (لكل بلدية من البلديات الأربع في تقرت فضاء توسعها) في أغلبها مشاريع مدنية منازل غير مكتملة في معظمها ذات طابق أو طابقين في أحياء متمايزة يظهر ذلك من سعر المتر المربع، وسعر المنازل (سعر المنزل في حي الرمال (تقرت) مثلا يمكن شراء بثمنه 4 مساكن في حي عين الصحراء (النزلة – تقرت) بنفس المساحة ونفس مستوى البناء) هذه التوسعات على طول المحاور في هندستها معظمها مستلهمة من الشمال لكن مع تطعيمها بعناصر أساسية من السكن التقليدي كالحوش التي تفرضه الظروف الطبيعية، هذه المنازل للمرأة دور كبير في تخطيطها وتوزيع عناصرها. وأيضا الملاحظة العامة أن التأثيرات الجهوية وأصل ساكنيها في التركيب الاجتماعي للمدينة تأثر كبير في توزيعها ومظهرها، هي منازل مهيأة للتوسع عموديا حسب حاجة الأسرة للتوسع خاصة بعد زواج الأبناء، هذا التوسع سمحت به طبيعة مواد البناء الإسمنتية والحديد، عوضا عن التوسع القديم الذي كان يتم أفقيا في متسع من الأرض.

مساكن عائلية في معظمها أنجزت بتكاتف جهود الأسرة من توفر وادخار ومساهمة الأبناء الكبار وأيضا في كثير من الأحيان بيع مجوهرات الزوجة، وعمل الأبناء، المسكن القديم يتم كرائه أو استعماله في وظائف تجارية ليساهم مدخوله في توسيع المنزل الجديد وإتمام بناؤه هذه الأشكال من الممارسات هي العنصر الغالب الآن في المظهر العمراني الجديد.

لطالما تنظم المجال العمراني في الصحراء وفي منطقة الدراسة على أسس من التناغم البيئي والاجتماعي، كون القصر التقليدي والمدينة التاريخية هي في الواقع نتائج مراعاة دقيق لظروف البيئة الصحراوية وأيضا تمثيل لصورة تنظيم اجتماعي وسياسي واقتصادي، التدرج من القصر إلى المدينة التاريخية هو تدرج متكامل تعززه الوظائف المنوطة بكل تنظيم مجالي يستجيب بكل مقاييسه للتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي يؤطره وبكل قوة الجانب الديني.

- ✓ **النتائج**

إن المرور من المدينة التاريخية أو القصر إلى المدينة " الحديثة " يطرح العديد من التساؤلات حول النتائج التي يحدثها على أنماط الحياة الاجتماعية وعلى الممارسات الحضرية في هذه المنطقة المطبوعة بالخصوصية الصحراوية، إن المرور المفاجئ بعد الاستقلال إلى تنظيم ذو نظرة وطنية باندماج المنطقة ضمن المجتمع الوطني العام وتساوي معدلات ومؤشرات النمو مع المعدلات الوطنية، مثلما أفاد المنطقة في تجاوز مرحلة طويلة من المحلية والحرمان، كان أيضا سببا في كثير من الإنقطاعات مع النسق المتكامل لمفهوم تنظيم المجال المتناغم.

إن تدهور السكن التقليدي في القصور والتطور المتسارع لهذه المدينة التي كانت مطبوعة بالمحلية قبل بضع سنوات، هذا التطور المرتبط بالنمو الديمغرافي تأثر و أثر في التحولات في الهيكلة الأسرية والاجتماعية. إن التوسع المجالي لهذه المحليات بعد أن خرجت المدينة عن أسوارها والقصور عن أزقتها الضيقة المغطاة أدخل أساليب جديدة للحياة وشروط

[16] **Said BELGUIDOUM** :idem, p 36.

جديدة ومتطلبات جديدة على المجال المكون في الرفاهية في استعمال فضاءات المنزل تحث على التفكير في مستقبلها حول أي مشروع مدني أو حضري هو في طور الإنجاز؟

إن العمران كونه نموذجا لتنظيم المدينة. هو ليس محايدا، وراء كل قرار عمراني يختبئ رسم اجتماعي وسياسي، بين الخط المستقيم والخط المنحني بين المستطيلات والدوائر المركزية حلول اجتماعية يجب أن توجد. المسألة العمرانية في الجزائر اعتمدت على الحلول المستوردة من أوربا المطبوعة بالنمو الرأسمالي والصناعي الذي أخل بالتنظيم الاجتماعي الذي حاول التكيف بين الواقع الجديد دون التخلي عن مصدره الهوياتي. من المؤكد أن تدهور النسيج العمراني للقصور والسكن التقليدي، والشروط الاقتصادية الجديدة وعدم وظيفية القصور تجبر المخططين على التدخل على مستواها ولكن السؤال المطروح حول أي نوع من التغيرات أو التعديلات.

إضافة إلى أحياء تمدن البدو الرحل التي بدأت في الظهور منذ السنوات الأولى للاستقلال التي بدأت في شكل تجمعات من الأحياء القصديرية أو في شكل السكن العشوائي ثم دخلت في الأنسجة العمرانية الرسمية عن طريق تثبيت البدو النهائي في أحياء معينة كانت في سنوات قليلة ماضية منعزلة عن الأنسجة المكونة للمدينة ثم أصبحت من ضمن هذه الأنسجة نتيجة توسع المدينة نحوها في السنوات الأخيرة، المخطط العام للتوجيه العمراني حدد أهداف وميكانيزمات عملية التعمير والعمران في المدينة بصفة إجمالية، لكن التوسع على المحاور والتقسيم الإداري الأخير وبالرغم من التوجيه الموحد للمدينة إلا أن المخططين ومكاتب الدراسات يلاحظون أن المدينة (تقرت) فقدت من وحدتها العمرانية في توجيهها نحو مركز معين بتطور عمرا نيتها في أشكال عشوائية، بحيث يشعر المتجول في المدينة أنه يتنقل بين أحياء كبيرة متجاورة وليس مدينة واحدة، بالرغم من عملية التعمير الموجهة فإن المنطق التقليدي للقصور المتجاورة فرض ديمومته كما فرضت الممارسات التي تطبقها المجموعات الاجتماعية المشكلة للتركيبة السكانية لمدينة تقرت ديمومتها أيضا.

لم يعد هذا السكن يذكرنا بالسكن التقليدي إلا بملامح مشوهة، توزيع الغرف والعناصر الأساسية تأثر بعمليات التقسيم والتجزئة من العناصر القديمة تمت المحافظة على الحوش الداخلي. الترميمات التي أدخلت تمت بالمواد الحديثة كالأسمنت والحديد اختلطت مع بقايا المواد القديمة من الجبس المحلي والحجارة. هذه الأحياء في الحقيقة ليست أحياء سكن تقليدي بقدر ما هي أحياء بؤر من الفقر. هذا المظهر ينطبق خاصة على المناطق الداخلية من القصر القديم التي تدهورت حالتها بشكل كبير.

في أحياء تمدن البدو نلاحظ خصائص سكن البدو الجديد هو سكن فردي ذاتي لكنه مطبوع بالخصائص الاجتماعية لساكنيه، قد كانت بداية هذا السكن تجمعات من البيوت القصديرية التي عوضت الخيام والأكواخ، وبعد السماح لهم بالبناء سنة 1983 قام جل السكان ببناء السور الخارجي للمنزل في بداية الأمر وأصبحت المنازل في شكل بيوت قصديرية مختفية داخل جدران من الأسمنت دون نوافذ خارجية ما عدا الباب الخارجي، لم تظهر فيها أي دراسة هندسية، بناؤها مشروط بالوضعية الاقتصادية لساكنيها ثم تمت إضافة عناصر أخرى في الداخل على مراحل لكن الحفاظ على الفضاء الداخلي الحوش الواسع يبقى سائدا في معظم هذا النوع من السكنات.

نتيجة التحولات الاقتصادية الجديدة، وظهور عائلات ثرية أربابها في الغالب من إطارات الشركات أو من موظفي شركات البترول بعض السكنات الراقية الفيلات بدأت في الظهور بمخططات تبرز ثراء أصحابها ووضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية الجديدة عددها قليل يتناسب مع عدد هذه الشرائح الجديدة في مجتمع الحشاشنة خاصة حولي 50 سكنا يمثل هذه

المواصفات حسب جولاتنا الميدانية يمثل نسبة 1% تقريبا من مجموع السكن. هي فيلات يراع في إنجازها المظهر الخارجي المعتنى به كواجهة تعلن عن وضعية ساكنيها الاقتصادية والاجتماعية مخططاتها منقولة عما يجري في الشمال متأثرة بالمسلسلات التلفزيونية في هندستها الداخلية على الشكل المصري خاصة مما يوحي بدور المرأة المتزايد في عملية تخطيط السكن.

السكن الجماعي قليل جدا في النزلة لا تمثل نسبته سوى 1.6% [17] من السكن، بخلاف تقرت التي استفادت من مشاريع سكن جماعية، وجود السكن الجماعي في النزلة اقتصر فقط على 78 سكن موزعة في أحياء النزلة القديمة ضمن التوسعات التي تمت في الثمانينيات هي شقق من نوع F+2 و F+3 تظم بعض الإطارات المتوسطة أو المعلمين والموظفين. تختلف وضعيات السكن من حيث الرفاهية وربطه بمختلف الشبكات من حي لآخر في مجمل البلدية وحسب المعلومات المتوفرة في المصالح التقنية وإحصاءات الديوان الوطني للإحصاء المعتمدة يمكن تسجيل نسب لا تختلف كثيرا على المستويات الوطنية.

خلاصة

الخريطة العمرانية التي تتشكل في مدن الواحات التي هي مشروع عمراني مفتوح في طور الإنجاز، هي في الحقيقة الهيكل الذي يضم خريطة اجتماعية على شكله ومقاسه السكان ليسوا مجرد أرقام في جداول، يسكنون ، يتعلمون، يستهلكون، بل هم فاعلون نشطون من خلال ممارساتهم واستراتيجياتهم واحتلالهم للمجال هم يرسمون المدينة و يخططون لها ويقيمون التقسيمات والعلاقات بينهم ويبنون مساكنهم على صورة هوياتهم الاجتماعية والأسرية ويعيشون المدينة بتمثلاتهم، إن المعرفة الجيدة لهذا الواقع العمراني والاجتماعي في هذه المدن هو الذي سوف تحديد نوع المدينة المراد إنشاؤها في الجنوب.

حاضر ومستقبل الواحة في طور التشكل ملامحه النهائية لم ترتسم بعد، الحتمي هو ضرورة استعجال البحث المعمق بأدوات مناسبة لفهم هذه التحولات للإجابة على إشكالات ومعضلات تخص التنمية ومصادمات أصبحت تطل برأسها من حين لآخر.

إن التحولات المجالية التي تشهدها مدن الواحات هي تحولات عميقة، غيرت في فترة وجيزة نسبيا نسقا دام قرونا طويلة الممارسات المهنية الجديدة أعادت تصنيف المجموعات والنخب في هذه المنطقة، الحشاشنة تحولوا من فلاحين إلى وظائف وأنشطة جديدة سمحت بها ظروف الإندماج في المجتمع الوطني العام، أما البدو المتمدنين فقد كانت مراحل تمدنهم هي محطات إكتساب وظائف جديدة، هذه الوظائف والأنشطة ساهمت أيظا في التوزيع المجالي الجديد، المجموعات مستفيدة من الوضع التقليدي والتضامنات الاجتماعية والأسرية وتركيبها في شبكة فاعلة مع الوضع المادي والسلطوي للتمركز في المجال وتملكه بطريقة ليست محايدة هي الأخرى، إنها تعبير واضح ومتعمد عن الهوية الاجتماعية والإقتصادية الجديدة، من خلال تمثلات السكان لمجالهم وما يعنيه لهم المنزل، الحي، المدينة، تصنع الأسرة والمجموعة لنفسها إنتماء وبالتالي هوية.

[17] الديوان الوطني للإحصاء (ONS) الإحصاء العام للسكن والسكان RGPH سنة 1989.